اخذت عقيدة ادارة بوش في الحرب الوقائية قفزة رئيسة الى الامام في الصيف الماضي في فترة الخمول الاعلامي في شهر آب. استحدث البيت الابيض في ٥/ اب/ ٢٠٠٤ دائرة المنسق لاعادة الاعمار والاستقرار برئاسة السفير الامريكي السابق في اوكرانيا كارلوس باسكوال مع تفويضه بصياغة الخطط المحكمة لـ (ما بعد النزاعات) لما يربو على خمسة وعشرين بلداً لم تدخل مرحلة الصراع حتى الان. ستكون الدائرة كذلك طبقاً لباسكوال قادرة على التنسيق لثلاث عمليات متكاملة لاعادة الاعمار في اقطار مختلفة (في الوقت نفسه)، كل عملية منها قد تدوم لفترة (خمس الى سبع سنوات). لعله امر مناسب لحكومة كرست نفسها للضربات الاستباقية التفكيكية وبصورة سرمدية ان يكون لديها الان دائرة دائمة لاعادة الاعمار الاستباقي المستمر.

من الاستعمار القديم الى استعمار (اعادة الاعمار)

ازدهـــــار رأسمالـيـــة الـكـــوارث

بقلم / نعومي كلاين

مضت تلك الايام التي كان يتم فيها انتظار اندلاع الحروب وبعدئذ يتم صياغة الخطط الخاصة لاعادة جمع الاجزاء المتناثر. تحتفظ دائرة باسكوال بـ (قائمة لمراقبة الاقطار المعرضة للمخاطر الشديدة) وبالتعاون المحكم مع مجلس الاستخبارات الوطنية. تقوم الدائرة بتجميع فرق متأهبة للاستجابة السريعة والانهماك في التخطيط لفترة ما قبل الحروب ولـ (التعبئة والانتشار بسرعة) بعد فتور الصراع. تتشكل الفرق من شركات خاصة ومنظمات غير حكومية واعضاء من مؤسسات البحوث. اخبر باسكوال جمهور المستمعين في مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية في تشرين الاول الماضي، ان البعض سوف يجد عقوداً جاهزة لاعادة بناء اقطار لم تدمر حتى الان، يمكن ان يكون انجاز الاعمال الكتابية مقدماً (ان يخفض زمن الاستجابة من ثلاثة الى ستة اشهر). تقوم فرق باسكوال برسم الخطط في مكتبة المعروف على نطاق ضيق في وزارة الخارجية لتغيير (البنية الاجتماعية الحقيقية للامم). اخبر لجنة مجلس الشيوخ لشؤون الاستخبارات ان التفويض الممنوح لدائرته هو ليس لاعادة بناء اية دولة قديمة، ولكن لخلق دول (ديمقراطية وموجهة نحو الاقتصاد الحر) ربما تشمل مهمته السريعة في تحقيق اعادة الاعمار والمساعدة في بيع (المشاريع المملوكة للدولة التي انشات اقتصاداً غير قابل للحياة على سبيل المثال، وكما اوضح باسكوال فان اعادة البناء قد يعني (تمزيق القديم ارباً ارباً) في بعض الاحيان. يمكن للقليل من الإيديولوجيين مقاومة اغراء اللوحة الفارغة- ذلك كان الوعد المغري للاستعمار، (اكتشاف) اراض واسعة جديدة، حيثما تبدو المدينة الفاضلة ممكنة التحقيق ولكن الاستعمار قد انتهى، او هكذا قيل لنا، وليست هنالك اماكن جديدة لتكتشف، لا وجود لاراض بكر خالية، ليست هنالك لوحات فارغة(يمكن ان تكتب فيها احدث واكثر الكلمات جمالاً) كما قال ماو ذات مرة. لكن هنالك بالرغم من ذلك الكثير من الدمار، اقطار حطمت وصارت انقاضاً سواء بما يمكن ان يعرف بعمل الهي او بسبب اعمال بوش (باوامر من الرب)، وحيثما هنالك دمار هنالك اعادة اعمار، فرصة لغرض السيطرة على (الفراغ الرهيب) كما قال احد مسؤولي الامم المتحدة مؤخراً والذي وضع الخراب في آتشي وملأه بالتصاميم الجميلة والاكثر كمالاً. يقول شالمالي كوتال الباحث في مركز العولمة الجنوبية المؤسسة في بانكلور (لقد كان لدينا في الماضي استعمار مبتذل، والان لدينا استعمار متطور ويسمى الان اعادة اعمار).

يبدو من المؤكد ان اجزاءاً اكبر من العالم هي تحت برامج اعادة الاعمار الناشط اكثر من أي وقت مضى. يتم اعادة البناء بواسطة حكومة نظيرة مكونة من الهيئات المألوفة من الشركات الاستشارية التي تسعى للحصول على الارباح، الشركات الهندسية، المنظمات غير الحكومية الضخمة، وكالات المساعدات الحكومية او الوكالات التابعة للامم المتحدة والمؤسسات المالية الدولية. تنطلق من الناس الذين يعيشون في مواقع اعادة الاعمار هذه، من العراق حتى آتشي، من افغانستان الى هايتي، تنطلق اصوات متشابهة مرددة اتهامات متشابهة. يمكن ان تسمع: تسير الاعمال والى درجة بعيدة ببطء شديد، ذلك ان وجدت اصلاً. يعيش الاستشاريون الاجانب حياة الترف بموجب عقود تستخدم طريقة حساب نفقة الكلفة زائداً المصاريف ورواتب قد تصل الى الف دولار في اليوم، بينما توصد الابواب في وجوه المواطنين للحصول على وظائف يحتاجونها بشدة، ويمنعون كذلك من التدريب والاشتراك في صنع القرارات. يحاضر خبراء (بناء الديمقراطية) الحكومات على اهمية الشفافية و (الحكم الجيد)، ولكن بالرغم من ذلك، يرفض معظم المقاولين والمنظمات غير الحكومية الكشف عن حساباتهم لنفس هذه الحكومات، ناهيك عن منحهم السيطرة على اساليب صرف الاموال المقدمة كمساعدات.

نشرت جريدة النيويورك تايمز، بعد ثلاثة اشهر من ضرب اعصار التسونامي لمقاطعة اتشي، قصة مزعجة تقول فيها انه (يبدو تقريباً ان لا شيء قد تم عمله، لم تبدأ عملية الشروع بالتصليحات او اعادة البناء). يمكن للتقرير بسهولة ان يكون قد ورد من العراق، حيث كما نشرت لوس انجلس تايمز مؤخراً تقريراً يقول ان كل مشاريع المياه التي زعم انها قد تمت اعادة بنائها من قبل شركة بكتل قد بدأت تتعطل، حالة اضافية اخرى من الابتهالات التي لا تنتهي في سجل (لخبطات) اعادة الاعمار. يمكن للتقرير ان يكون قد ورد من افغانستان حينما شن الرئيس حميد كرزاي مؤخراً هجوماً عنيفاً على (المقاولين الاجانب الفاسدين، المسرفين في الانفاق الذين يتصرفون بدون الشعور بالمسؤولية لتبذيرهم الموارد النفيسة التي تلقتها افغانستان كمساعدات)، او من سري لانكا، حيث فقد ستمائة الف شخص منازلهم في التسونامي والذين لا يزالون يعانون حياة مهينة في معسكرات مؤقتة. ارسل هيرمان كومارا رئيس حركة التضامن الوطنية لصيادي الاسماك في نيجومو- سري لانكا، رسالة الكترونية يائسة الى زملائه حول العالم يقول فيها (بعد مئة يوم من اجتياح الامواج الجبارة، الاعتمادات التي تم تسلمها لاعانة الضحايا تم توجيهها لفائدة اصحاب الامتيازات القلائل وليس الى الضحايا الفعليين ان اصواتنا لا تسمع ولا يسمح لها بالتعبير عن نفسها).

لكن اذا كانت صناعة اعادة الاعمار غير كفوءة الى هذه الدرجة المذهلة فقد يعود ذلك الى ان اعادة البناء هو ليس هدفها الاساس طبقاً لكوتال (الموضوع لا يتعلق باعادة الاعمار على الاطلاق.. انه حول اعادة تشكيل كل شيء) . تخدم قصص الفساد وعدم الكفاءة (بالرغم من كل شيء) حجب الفضيحة الادهى، ازدهار اعراف النهب والسلب لراسمالية الموارث التي تستغل اليأس والمخاوف التي تحدثها النكبات للمشاركة في تغيير جوهري للهندسة الاجتماعية والاقتصادية للدول. تعمل صناعة اعادة الاعمار على جبهة اعادة الهندسة الاجتماعية بسرعة فائقة وبكفاءة من اجل تحقيق الخصخصة وتثبيت الاستيلاء على الاراضي بطرق اعتيادية قبل ان يدرك السكان المحليون ماذا يحدث لهم. يحذر كومارا في رسالة الكترونية اخرى ان سري لانكا تواجه الان (تسونامي ثانية من عولمة الشركات المتعددة الجنسيات والعسكريتاريا)، بل مع امكانيات للتدمير اكثر من التسونامي الاولى (نحن نرى ما يحدث لحظة عمل وسط الازمة لتسليم البحر والشواطئ الى الشركات الاجنبية الكبرى ولقطاع السياحة مع مساعدة من قبل قوات مشاة البحرية الامريكية).

صمم بول وولفوفيتس كنائب لوزير الدفاع ومشرف على مشروع مماثل في العراق وبدرجة لافتة للنظر: كانت النيران ما تزال مشتعلة في بغداد، عندما اعاد مسؤولو الاحتلال الامريكان كتابة قوانين الاستثمار واعلنوا ان الشركات الوطنية المملوكة للدولة سوف يتم تحويلها الى القطاع الخاص. يشير البعض الى ان سجله في هذا المضمار يجعله غير مؤهل لقيادة البنك الدولي.

في الحقيقة، لا شيء يمكن ان يكون قد هيأه بصورة افضل لعمله الجديد. كان وولفوفيتس يقوم في العراق بما يقوم به البنك الدولي عملياً في كل قطر مزقته الحروب او نزلت به الكوارث - ولو مع كياسة بيروقراطية اقل وتبجح ايديولوجي اكبر.

تتسلم اقطار (ما بعد الصراع) الان ٢٠-٢٥ بالمئة من مجموع قروض البنك الدولي مقارنة بـ (١٦) بالمئة في عام ١٩٩٨ والرقم بذاته يمثل زيادة قدرها (٨٠) بالمئة عن عام ١٩٨٠ طبقاً لدراسة قدمتها مؤسسة البحوث في الكونغرس. كانت الاستجابة السريعة للحروب والكوارث الطبيعية ميداناً تقليدياً لوكالات الامم المتحدة والتي كانت تعمل مع المنظمات غير الحكومية لتوفير المساعدات الطارئة، مثل بناء المساكن المؤقتة وما شابه. لكن بعد ان تم اكتشاف اعادة الاعمار كصناعة مربحة وبدرجة هائلة ومن الاهمية بمكان بحيث يجب ان لا تترك الى المثاليين في الامم المتحدة، فان البنك الدولي قد نذر نفسه لمبدأ تخفيف الفقر عبر كسب الارباح وهو الذي يقود الحملات الان. ليس هناك ادنى شك بان هنالك ارباحاً يمكن ان تكسب في صناعة اعادة الاعمار،وان هنالك عقوداً هندسية وعقود تجهيز ضخمة (عشرة بلايين دولار لشركة هاليبرتون في العراق وافغانستان فقط). تفجرت (بناء الديمقراطية) الى صناعة تبلغ قيمتها بليوني دولار، ولم يكن هنالك ابدا زمن افضل للاستشاريين من الشركات الخاصة التي تنصح الحكومات بتصفية موجوداتها وتستخدم في العادة المصالح الحكومية نفسها كمقاولين ثانويين (اعلنت شركة بيرنك بوينت ذات الحظوة في الولايات المتحدة وان مواردها من شعبة -الخدمات العامة- قد تضاعفت اربع مرات في خمس سنوات فقط). اما قيمة الارباح فهي هائلة ، (٣٤٢) مليون دولار في عام ٢٠٠٢ (يقدر الهامش الربحي في حدود ٣٥ بالمئة). لكن الاقطار المدمرة هي جاذبة للبنك الدولي لسبب اخر: انها تتقبل الاوامر بسهولة، بعد كارثة مفاجئة وعنيفة سوف تعمل الحكومات اعتيادياً أي شيء يطلب منها من اجل الحصول على المساعدات بالدولار، حتى اذا كان ذلك يعني تكليفها مالا تطيق من ديون ضخمة والموافقة على تنفيذ اصلاحات هائلة في السياسات العامة، ولكون السكان المحليين يكافحون من اجل البحث عن المأوى والغذاء فان انشاء تنظيم سياسي معاد للخصخصة يمكن ان يبدو وكأنه ترف لا يمكن تخيله.

بل الشيء الافضل من منظور البنك الدولي هو التعامل مع اقطار مدمرة بسبب الحروب وهي لذلك في حالة - سيادة محدودة- ينظر البنك الى هذه الدول على انها غير مستقرة وغير ماهرة بما فيه الكفاية لإدارة اموال المساعدات التي تنهمر عليها، ولهذا فهي اعتيادياً توضع في صندوق ائتمان يدار من قبل البنك. هذه هي الحال في تيمور الشرقية، حيث يقوم البنك باعطاء الاموال الى الحكومة بالتقتير ما دامت تبدو بانها تتصرف بها بمسؤولية. تتمثل المسؤولية حسب مفهوم البنك بالسعي الى تخفيض الوظائف في القطاع العام (تم تقليل عدد موظفي حكومة تيمور الى نصف عددهم اثناء الاحتلال الاندنوسي). لكن البنك ينفق بدون حساب اموال المساعدات على الاستشاريين الاجانب الذي يصر على استخدامهم من قبل الحكومة (يكتب الباحث بين موكسهام انه في احدى الدوائر الحكومية، يكسب استشاري دولي واحد في شهر واحد مجموع ما يكسبه عشرين من زملائه التيموريين مجتمعين في سنة كاملة).

يشرف البنك الدولي في افغانستان على المساعدات المقدمة للبلاد عبر صندوق للائتمان، لقد استطاع البنك خصخصة الرعاية الصحية برفقة اعطاء الاعتمادات اللازمة لبناء المستشفيات لوزارة الصحة، وبدلاً من ذلك يضخ الاموال مباشرة الى المنظمات غير الحكومية التي تدير عياداتها الصحية الخاصة التابعة لها بموجب عقود امدها ثلاثة اعوام. منح البنك كذلك (دوراً متزايداً للقطاع الخاص) في ادارة مشاريع انظمة المياه، الاتصالات، النفط، الغاز والتعدين. كما وجه الحكومة (للانسحاب) من قطاع الكهرباء والتخلي عنه الى (المستثمرين الاجانب من القطاع الخاص). لم تتم منافسة هذه التحولات العميقة للمجتمع الافغاني او الاعلان عنها رسمياً وذلك لان القليلين خارج البنك يعرفون انه قد تم اتخاذها. تم اخفاء التغييرات عميقاً في (الملاحق الفنية) المرفقة مع المنح التي وفرت المساعدات (الطارئة).

كانت هنالك قصة مماثلة الى درجة كبيرة في هايتي عقب اقصاء الرئيس جين بيراتراند ارستيد. طلب في مقابل منحه قرضاً قدره (٦١) مليون دولار (بالاشتراك القطاعين العام والخاص والتحكم في قطاعي التعليم والصحة) وذلك طبقاً لوثائق البنك، وبعبارة اخرى ان الشركات الخاصة هي التي سوف تدير المدارس والمستشفيات. اوضح روجر نورييغا مساعد وزير الخارجية لشؤون نصف الكرة الغربية ان ادارة بوش تشاطر البنك في سعيه لتحقيق هذه الاهداف (سوف نشجع حكومة هايتي ايضاً للتقدم نحو الامام في الوقت المناسب، لاعادة هيكلة وخصخصة البعض من المؤسسات في القطاع العام)، كما اخبر معهد المشروع الامريكي (امريكان انتربرايز) في ٤ نيسان ٢٠٠٤, ان هذه الخطط هي مثيرة للجدل بصورة استثنائية في بلد ذو قاعدة اشتراكية فعالة، ولكن البنك يقر بان ذلك هو السبب الذي يجعله يضغط من اجل تحقيقها الان، مع كون هاييتي تحت حكم يقترب من كونه نظاماً تسيطر عليه القوات المسلحة. يلاحظ البنك في ديباجة اتفاقية عملية الاصلاح الحكومي الاقتصادي بان (الحكومة الانتقالية توفر نافذة من الفرص لتنفيذ الاصلاحات الاقتصادية الحكومية.. والتي من الممكن ان تصبح عسيرة على الحكومات المقبلة ان تبطلها).هذا امر مثير للسخرية والشعور بالمرارة بالنسبة للهاييتيين. يلوم العديد منهم المؤسسات الدولية ومن ضمنها البنك الدولي بتعميق الازمة السياسية التي قادت الى اقصاء ارستيد عن السلطة وذلك بالامتناع عن دفع مئات الملايين من القروض الموعودة. ادعى بنك التنمية الامريكي في ذلك الوقت بضغوط من وزارة الخارجية بان هاييتي لم تكن ديمقراطية بما فيه الكفاية لتلقي المساعدات ملمحين الى حدوث بعض المخالفات الثانوية في الانتخابات التشريعية، ولكن الان بعد رحيل ارستيد، يحتفل البنك الدولي بدون تحفظ بمزايا العمل في مناطق خالية من الديمقراطية.

يفرض البنك الدولي وصندوق النقد الدولي المعالجة بالصدمة على اقطار في حالات متباينة من التوتر منذ ثلاثة عقود في الاقل. من الامثلة البارزة في هذا المجال ما كان يحدث بعد الانقلابات العسكرية في امريكا اللاتينية وما حدث بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، وبالرغم من ذلك فان العديد من المراقبين يقولون ان رأسمالية الكوارث في الحقيقة بلغت سرعتها الحالية بعد اعصار ميتش. توقف الاعصار لاسبوع في تشرين الاول ١٩٩٨ فوق امريكا الوسطى مبتلعاً قرى بكاملها وقاتلا ما يزيد على التسعة الاف شخص. كانت الاقطار التي اصابها الاعصار والتي تعاني من الفقر اساساً في اشد الحاجة الى مساعدات لاعادة الاعمار في ذلك الحين. اتت المساعدات ولكن مع شروط موفقة، بعد شهرين من انطلاق اعصار ميتش، بدا الكونغرس في هندوراس والبلد لا يزال مغموراً الى الركبتين في الانقاض والجثث والاوحال، ما اطلقت عليه الفايننشال تايمز (بيعاً سريعاً وباسعار مخفضة لما بعد العاصفة). بدأ بإصدار قوانين تسمح بخصخصة المطارات والموانئ والطرق العامة واسرع بتقديم الخطط لخصخصة شركة الهواتف العمومية وشركة الكهرباء الوطنية واجزاء من قطاع المياه. قام بالغاء قوانين اصلاح الاراضي وسهل للاجانب شراء وبيع الاملاك حدث الشيء نفسه والى حد بعيد في الاقطار المجاورة. اعلنت غواتيمالا في نفس هذين الشهرين خططاً لبيع خدمة الهاتف وكذلك فعلت نيكاراغوا اضافة الى بيع شركة الكهرباء والقطاع النفطي.

تم الترويج لمشاريع الخصخصة بعدوانية من قبل نفس المشبوهين المألوفين طبقاً لجريدة وول ستريت جورنال (القى البنك الدولي وصندوق النقد الدولي بثقليهما خلف بيع شركات الاتصالات ووضعها كشرك مسبق لاطلاق ما يقارب الـ (٤٧) مليون دولار كمساعدة وفترة ثلاث سنوات وربطها كشرط لاعفاء نيكاراغوا من ديون خارجية تبلغ ما يقارب الـ (٤,٤) بليون دولار).

يستعمل البنك اعصار تسونامي الذين حدث في ٢٦ كانون الاول للترويج لسياسات سرقة الخبز. الاقطار التي عانت من معظم الدمار لم تشهد تقريباً أي اعفاء من الديون، ومعظم المساعدات الطارئة المقدمة من البنك الدولي قد اتت على شكل قروض وليس هبات. يضغط البنك من اجل توسيع قطاع السياحة ومزارع تربية احواض الاسماك بدلاً من التشديد على مساعدة جماعات الصيادين الصغار الذي يشكلون اكثر من ٨٠٪ من ضحايا الامواج. تقر وثائق البنك بان اعادة بناء البنى التحتية العامة المدمرة مثل الطرق والمدارس (يمكن ان يجهد المالية العامة)، ويقترح على الحكومات دراسة امكانية خصخصتها (اجل ، ليس لديهم الا فكرة واحدة!). تشير خطة البنك لمعالجة اثار التسونامي الى انه (قد يكون من الملائم الاستفادة من الاستثمارات الخاصة). يبدو انه تماماً كما هو الحال في مواقع اعادة الاعمار من هاييتي الى العراق، اغاثة ضحايا التسونامي ليس له علاقة بتعويض ما تم فقدانه، بالرغم من ان الفنادق والصناعة قد بدأت باعادة الاعمار على شواطئ سري لانكا وتايلند واندونيسيا والهند. اصدرت الحكومات قوانين تمنع العوائل من اعادة بناء منازلهم على شواطئ المحيط. تم اجبار مئات الآلاف من الناس للانتقال الى مناطق اخرى في الداخل، الى ثكنات على الطراز العسكري في آتشي والى صناديق كونكريتية جاهزة في تايلند. لم تتم اعادة بناء السواحل كما كانت في السابق، قرى متناثرة للصيادين وشواطئ مكسوة بشبكات صيد الاسماك المصنوعة يدوياً. بدلاً من ذلك، توحد الحكومات والشركات والمانحون الاجانب جهودهم من اجل اعادة بناء السواحل كما يرغبون هم بان تكون: بلاجات وملاعب للسياح، والمحيطات وكنوز البحار لاساطيل صيد الاسماك التابعة للشركات الكبرى وكلهم يستخدمون مطارات خاصة وطرقاً عامة مبنية باموال مقترضة.

اشعلت كوندليزا رايس شراراة قضية صغيرة مثيرة للجدل في كانون الثاني الماضي بعد ان وصفت التسونامي كـ (فرصة رائعة) والتي (ستعود علينا بفوائد عظيمة). اصيب العديد بالاشمئزاز من فكرة التحدث عن ماساة انسانية عظيمة كفرصة للبحث عن الفوائد ولكن بالرغم من كل شيء فان تصريح رايس لم يعط الموضوع التشديد الذي يستحقه، تقول مجموعة تسمي نفسها الناجين من التسونامي ومسانديهم في تايلند، انه بالنسبة (لرجال الاعمال- السياسيين فان التسونامي كان استجابة لدعواتهم، لقد ازال الاعصار واقعياً كل المجتمعات التي وقفت في طريق تنفيذ خططهم لانشاء المنتجعات، الفنادق، الكازينوات ومزارع الروبيان في المناطق الساحلية بصورة كاملة. بالنسبة لهم كل هذه المناطق الساحلية هي الان ارض مفتوحة!!). يبدو ان الكوارث هي الارض البكر الجديدة

عن: ذي نيشن

ترجمة: احسان عبد الهادي

طبق الاصل

مؤيد نعمة